سياسة بونابرت الإسلامية

لعل أهم ما أبدأ به حديثى الليلة هو قضية توظيف الدين لخدمة السياسة، وتلك مسألة أعلم أنها ستثير شهية الحديث عند الكثيرين.

كانت مصر فى الفترة التى جاء إليها بونابرت تعيش فترة قلقة، تلك الفترة ـ منذ انتهاء حكم على بك الكبير وحتى مجىء الحملة الفرنسية ـ تُعد من أشد الفترات اضطرابًا وفسادًا واستغلالاً، فهناك جمود دينى، يتمثل فى تظاهر البعض بالعبادة، واتخاذ ذلك ذريعة للتخاذل عن العيش الجاد والتغرير بالعامة.

هذا وقد كثر الأدعياء، وتظاهروا بالتقشف ولبسوا مسوح التصرف، وذلك على نحو شكلى، وقد عرض الجبرتى نماذج من هذا التخلف الفكرى لدى علماء الدين، وأوضح أن التخلف بين قادة الفكر تجلى فى مجموعتين رئيسيتين: إحداهما جماعة العلماء التى تمسكت بالعلوم التقليدية وكرهت كل جديد وحاربته، ونسوا أن الاجتهاد كان السبب فى ازدهار الحياة الفكرية عند المسلمين، والثانية جماعة العلماء الرسميين، وهم الذين تولوا مناصب كبيرة فى البلاد، واستغلوا علمهم لمناصرة السلطة، وذلك عن طريق محاربة كل جديد.

وأرجع الجبرتى فساد أخلاق العامة فى سائر البلاد إلى جهل هؤلاء العلماء الذين يتصدرون للفتوى والوعظ وهم لا يعرفون كيف يرشدون الناس أو يميزون لهم بين الحق والباطل، والحلال والحرام. ثم عرض نماذج لما ارتكبوه من مفاسد، ومانالوه من عقاب أيضًا.

ويذكر أنه جاء إلى مصر أحد الولاة، وكان له شغف بعلوم الفَلَك والبيئة وغيرهما. وسأل عن أصحابها من علماء الأزهر، فقالوا له إن هذه العلوم قد بطل تدريسها بالأزهر. فقال: «المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم، وكنت فى غاية

الشوق إلى المجيء إليها، فلما جبتها وجدتها كما قيل: أن تسمع بالمصرىّ خيرٌ من أن تراه. فدلوه على الشيخ حسن الجبرتى، وكان يمارس هذه العلوم فى بيته علمًا وعملاً، ويدرسها لطائفة من تلاميذه.

فإذا كان الدين قد وُظِّفَ فى مصر قبل الحملة الفرنسية من جانب بعض العلماء لخدمة أصحاب السلطة، فإن الفرنسيين جاءوا يستخدمون نفس الشىء.

ومن الشائع لدى المورخين أن «بونابرت» هو واضع أسس السياسة الإسلامية التى شرع يطبقها فى مصر، ولكن الحقيقة أن «تاليران» وزير الخارجية فى حكومة الإدارة الفرنسية هو الذى اقترح هذه السياسة فى تقريره المشهور الذى قدمه بتاريخ ١٣ فبراير ١٧٩٨م.

ويحتل هذا التقرير مكانة هامة فى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر، نظرًا لما بذله صاحبه من جهد عندما أخذ على عاتقه أن يعرض العلاقات التى قامت من قديم الزمان بين فرنسا ومصر.

وتضمن التقرير المبادئ التى استرشدت بها فرنسا فى سياستها الخارجية إزاء الباب العالى، ثم عمل «بونابرت» نفسه ـ ثم خلفاؤه من بعده ـ على تنفيذها عند احتلال البلاد. وما يهمنا فى هذا التقرير ضرورة أن يقود الحملة على مصر رجال أبرز صفاتهم الحكمة وأصالة الرأى، وفى وسعهم أن يحملوا الفرنسيين قاطبة فى هذه البلاد (مصر) على احترام تقاليد أهلها وعاداتهم، وشعائرهم الدينية، وكذلك موقفهم من المرأة، فلا يصح أن يسلك الفاتحون مسلكًا قد يجعل المصريين يعتقدون أنهم إنما استبدلوا ظلمًا بظلم، واستعاضوا عن شرٍّ بما هو أشرُّ منه، أمَّا السبيل السوىُّ إلى استمالة المصريين وكسب مودتهم، فهو تبجيل علمائهم وشيوخهم، واحترام أهل الرأى منهم، لأن هؤلاء العلماء أصحاب سيطرة كبيرة على الشعب وتسلّط عظيم على تفكيره.

حقيقة أن «تاليران» أخطأ عندما اعتقد أن الحملة لن تلقى مقاومة من جانب المصريين، فقال إن فتح هذه البلاد لن يكلف الفرنسيين نقطة دم واحدة لأسباب عدة، منها عداء المصريين الظاهر للحكومات المماليك، حتى أنهم إذا أعطوا سلاحًا لقتال الفرنسيين الغزاة استخدموا هذا السلاح فى قتال أولئك الذين طغوا فى حكمهم وبغوا عليهم. لكن «تاليران» رسم السياسة التى سار عليها «بونابرت» والتى هى موضوع حديثنا الليلة.

تنقسم سياسة «بونابرت» إلى قسمين: القسم الأول وهو الذى تمسك فيه بصداقة الباب العالى، وهى المبادئ التى قررها «تاليران» فى تقريره المعروف، ففى منشوره الذى أعده على ظهر البارجة (أوريان) أكد للمصريين أنه لم يأت لمحاربة السلطان العثمانى والاعتداء على حقوقه، فطلب إلى كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى، وتنصب علم الفرنساوية الذى هو أبيض وكحلى وأحمر، وأن تنصب كذلك سنجاق السلطان العثمانى دام بقاؤه.

وأوجز غرضه من هذا المنشور عندما نص فى طلبه على أن «الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أن يلازموا وظائفهم، وعلى كل واحد من أهالى البلد أن يبقى فى مسكنه مطمئنًا، وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك، قائلين بصوت عالٍ: «أدام الله إجلال السلطان العثمانى، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى، لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية».

وفى خطته التى أوضحها فى منشوره هاجم تملك المماليك حكم مصر، وهو المبدأ الذى تصدَّت له الثورة الفرنسية، وهو حق الملوك الإلهى فى الحكم، «فإن كانت الأرض المصرية التزامًا للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم، ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم».

وشرع يوظف الدين هو الآخر، فدفع عن نفسه ماقد يلصقه به أعداؤه من تهمة القدوم إلى هذه البلاد ليزيل دين أهلها، فهو أكثر من المماليك، يعبد الله سبحانه وتعالى، ويحترم نبيه والقرآن العظيم.

وشرع يسوق الأدلة والبراهين على صحة دعواه.. والدليل على ذلك أن الفرنسيين نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائمًا يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية (فرسان القديس يوحنا الأورشليمى) الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين.

على أنه ما إن ساءت علاقة «بونابرت» بالسلطان العثمانى وانضمت تركيا إلى جانب الإنجليز والروس فى إعلان الحرب ضد فرنسا، حتى شرع «بونابرت» يبذر بذور التفرقة بين المصريين والعثمانيين ويُظهر السلطان العثمانى بمظهر الذى لايهتم بمصلحة الإسلام، ولا يحرص على الشريعة المحمدية.

وفكر «بونابرت» أن يتخذ من القاهرة ومكة مركزين لتأييد سياسته الإسلامية. القاهرة حيث الجامع الأزهر، ومكة مقر العلوم الإسلامية البحتة. وعقد «بونابرت» آمالا على أن فى استطاعته أن يستعمل من هذين المركزين قوة جديدة تكفل له وضع البلاد المجاورة تحت سُلطانه. ويجب أن ننظر إلى سياسة «بونابرت» الإسلامية ليس فى مصر وحدها، بل فى البلاد الإسلامية الأخرى، ومن ثم شرع يُوفد الرسل، ويكتب الكتب إلى أمراء المسلمين وحكامهم فى الأقطار المجاورة لمصر، وهى أقطار كانت لاتزال منضوية تحت لواء الخلافة العثمانية، فأرسل رسولاً إلى الجزار صاحب عكا لمقابلته فى يافا، وليؤكد له صداقة الفرنسيين له، وأنهم لايبغون استرقاق المسلمين، بل على العكس يريدون من ذلك تحريرهم وخلاصهم.

وكتب إلى حاكم أدرنة وإلى حاكم طرابلس الغرب بطلب عقد أواصر الصداقة والمحبة معهما، وفعل نفس الشىء مع إمام مسقط، وطلب من الأخير أن يبعث بهذه الأخبار إلى «تبو» آخر ملوك المسلمين فى الهند، والذى كان يخوض صراعًا رهيبًا ضد الحكم البريطانى فى الهند. ثم كتب له بنفسه بعزمه على طرد الإنجليز من الهند، وأرسل الكتب إلى شريف مكة لتوطيد العلاقات التجارية كذلك بين مصر وبلاد العرب والهند، ثم كتب إلى عبد الرحمن الرشيد، سلطان دارفور، يستميله إليه، ويعده بتأمين القوافل القادمة من دارفور إلى مصر للتجارة. ويطلب إليه إرسال ألفين من العبيد الأشداء.

وفضلاً عن ذلك فقد استكتب أعضاء ديوان القاهرة رسالة إلى شريف مكة فى أول سبتمبر سنة ١٧٩٩ تحدث فيها أعضاء الديوان عن جهود التى يقوم بها «بونابرت» لتأمين طريق الحج، وأثنوا على سياسته، وذكروا اهتمامه البالغ بأعياد المصريين الإسلامية والقومية، واشتراكه فى الاحتفالات والمهرجانات التى حرص على إقامتها فى مناسبات هذه الأعياد جميعًا.

ولما كان السلطان العثمانى ـ وهو خليفة المسلمين ـ قد أصبح عاجزًا عن الاضطلاع بمهام مناصبه الرئيسية، منذ انحيازه إلى جانب أعداء الفرنسيين، ومغادرة نائبه مصر، فقد عمد «بونابرت» إلى فعل تلك الوظائف الدينية التى كان يقوم بها هؤلاء باسم السلطان ـ الخليفة ـ إلى العلماء والمشايخ المصريين، كما اضطلع هو الآخر بنصيب منها، على غرار مافعل عندما ترأس الاحتفال بحلول شهر الصوم المبارك عام ١٢١٣هـ، فكتب إلى حكومة

الإدارة فى ١٠ فبراير ١٧٩٩ «أنه قد احتفل بهذا اليوم احتفالاً فخمًا، وقام بالوظائف التى كان يقوم بها الباشا العثمانى فى هذه المناسبة».

وعندما خرج القاضى العثمانى إلى الشام، قرر بونابرت «أن يجتمع علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضيًا شرعيًّا من علماء مصر وعقلائهم، لأجل موافقة القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين... على أن يكون لابسًا من عندى، وجالسًا فى المحكمة، كما كان يفعل الخلفاء فى العصر الأول باختيار جميع المؤمنين».

وطلب إلى أعضاء الديوان أن يخبروا أهل مصر «أنه انفضّت وفرغت دولة العثمانلى من أقاليم مصر، وبطلت أحكامها منها، وأن يخبروهم أن حكم العثمانلى ـ وهم أصحاب الخلافة ـ أشد نصبًا من حكم الملوك المستبدين، والذين لاتربطهم أواصر الخلافة بشعوبهم، كسلاطين آل عثمان، أو لا تقيدّهم أحكام الدستور على غرار الجمهورية الفرنسية ذاتها، بل كان العثمانيون أكثر ظلمًا من هؤلاء الملوك، والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية وأهلية للأحكام الشرعية، يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم فى سائر الأقاليم.

ونقل «بونابرت» إلى الحكام الفرنسيين فى المديريات نبأ اختيار الشيخ «العريشى» الذى أجمعت كلمة العلماء على اختياره للقضاء فى مصر، وطلب إليهم أن يبينوا لأهل البلاد أن حكومة العثمانيين قد زالت أيامها من مصر، وأن تعاليم القرآن لاتقر بحال أن يحضر (العثمانلى) من القسطنطينية ليقوموا بالقضاء فى بلد لايفهمون لغة أهله، وفضلاً عن ذلك فإن (إستانبول) ذاتها لم يدخل فيها الإسلام ويعتنق أهلها العقيدة المحمدية إلا بعد أن انقضى على وفاة الرسول ﷺ ثلاثة أو أربعة قرون، بل إنه لوعاد النبى الكريم نفسه إلى الأرض ثانية لما ظهر بها، ولما اتخذ مقامه بين أهلها، ولنَزلَ حتمًا بأرض القاهرة المقدسة، وعلى ضفاف النيل. أما زعيم العالم الإسلامى اليوم فهو شريف مكة صديق الفرنسيين، ولا جدال فى أن علماء القاهرة قد أضحوا وحدهم أهل العلم دون سائر الناس، ولا يعارض إنسان فى أنهم أكبر العلماء إطلاقًا فى أقطار الإمبراطورية العثمانية جميعها».

وفى كتاب يحمل عنوان «نابليون والإسلام» Napoleon Et L'Islam لمؤلفه جنرال جورج سبلمان Spilman الذى عاش فى المغرب سنة ١٩٢٠، وقام بمهمة الاستعلامات بها، وتولى مسئولياته حوالى ٢٧ سنة ـ كما جاء فى المقدمة ـ اعتمد المؤلف على مقابلات لشخصيات

عدة، ودراسات ووثائق مختلفة، وفى فصل بعنوان «نابليون والعقيدة» أورد حواراً خيالياً تَصَوَّرَهُ نابليون يجرى فى الهرم الأكبر (هرم خوفو) مع ثلاثة من علماء المسلمين، وهو حوار طريف على كل حال، موجود فى صحيفة المونيتور الرسمية، فى العام السابع للثورة. يبدأ الحوار «بونابرت» بالقول: سبحان الله، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وأنا من أصدقائه.

سلمان: السلام على مبعوث الله، والسلام عليكم أيضًا أيها الجنرال الذى لايقهر، والمفضل لدى محمد.

بونابرت: أشكرك أيها الفتى. إن القرآن خير بهجة لروحى.. وأنا أحب النبى وأنوى زيارة قبره فى المدينة، ولكن مهمتى هى إبادة المماليك.

إبراهيم: لتقم ملائكة النصر بإزاحة الأذى من طريقك، فإن المماليك يستحقون الموت.

محمد: تحية لأسلحتك التى لاتقهر أيها الخليفة النبيل للإسكندر، وتحية للصاعقة غير المنتظرة التى تخرج من بين صفوف فرسانك المحاربين.

. . . . . .

وفى آخر الحديث يقول «بونابرت»:

يا علماء الدين، ويا أيها الأئمة والموالى والدراويش، أخبروا شعب مصر وشجعوه على أن ينضم إلينا لكى ننتهى من القضاء على المماليك.

المهم أن المؤلف فى هذا الفصل ينفى عن «بونابرت» إلحاده، وأنه كان يريد للفرنسيين عقيدتهم وكنيستهم، لكن لتكن كنيسة قومية لاتخضع لسلطان البابوية.

كان يعرف أنَّ الأغلبية من الفرنسيين من الكاثوليك، ولن يقبلوا ببساطة قَطْع العلاقة مع روما، ومن ثم فإنه من غير الممكن أن تكون لفرنسا كنيستها المستقلة عن روما شأن الكنيسة الإنجليزية.. والمشكلة أن البابوية لا تكترث كثيراً بمصالح الفرنسيين.

وشغلته مسألة: ماذا لوجاء أحد البابوات من أصل نمساوى أو إيطالى؟ إنه سيكون خائفًا على فرنسا، وصرح لبعض أقربائه أنه لن يدع فرصة حتى يضع للكنيسة فى فرنسا حقوقًا وحدودًا مستقلة عن البابا.

وأورَد المؤلف من أحاديثه فى سانت هيلانة:

«كنت أريد أن أقيم حرية العقيدة فى العالم، وكان مسلكى ألاَّ أنتصر لديانة دون أخرى.. كنت أريدُ أن أترك لكل فرد أن يعتقد ما يراه ويؤمن به، بروتستانت، كاثوليك، مسلمين...».

وفى مذكرات بعنوان «ما وراء القبر D'Oure Tombe» لمؤلف فرنسى يدعى «شاتوبريان Chateaubriand» (١٧٦٨ ـ ١٨٤٨)، تحدث الكاتب عن لقائه ببونابرت سنة ١٨٠٢، فقال: لقد حدثنى عن مصر والعرب كما لوكنتُ من المقربين له، وكما لو كان يكمل حديثًا قد بدأه بالفعل من قبل معى، فقد قال لى:

«لقد كنت أدهش دائمًا عندما كنتُ أرى الشيوخ يخرون راكعين فى وسط الصحراء متجهين نحو الشرق، ويلمسون التراب بجبينهم.. ما هذا الذى كانوا يعبدونه باتجاه الشرق؟».

ويمضى الكاتب فيقول: وعند حديثه عن المسيحية قال لى: «ألم يكن المفكرون يودُّون أن يجعلوا منها نظامًا مَلكيًّا؟».

لقد استخلص «شاتوبريان» من هذا الحديث أن القنصل الأول ليس ملحدًا على عكس ما اعتقد الكثيرون عنه، وأنه لو أتيحت له الظروف لأعاد للكنيسة الكاثوليكية مكانتها فى فرنسا من جديد.

وتبدأ وصيته عند احتضاره بقوله: «إننى أحتضر على الدين الرسولى الرومانى الذى ولدت فى أحضانه منذ أكثر من خمسين عامًا».

وفى اليوم الثالث من مايو ١٨٢١ حصل على العفو الكامل، وتوفى فى اليوم التالى.. يقول الكاتب: إن نابليون مات على عقيدة.. ويخلص من ذلك إلى أن إصرار نابليون على الموت على المسيحية لايعنى أن إعرابه المتكرر عن مشاعره الودّية تجاه الإسلام كان فقط بدافع الوصولية السياسية، بل يجب أن نرجح ذلك على الأرجح لشعور التسامح الدينى الذى كان سائدًا فى فرنسا فى القرن الثامن عشر، والذى كان نابليون شاهدًا عليه فى كثير من الأحيان.

أشكركم على سعة صدركم لسماعى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.